فِرَاقُ الأَحِبَّة في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ دِرَاسَةٌ فِي مُعْجَمِ الأَلْفَاظِ

د. عَلِي بنْ العَرْبي كُرْيَاع - جَامِعَةُ الوَادِي

ملخص:

يَتَنَاولُ هَذَا المَقَالُ تَصْويرَ حَالَةِ الفِرَاقِ في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ، منْ خلال التَّأثيرَات النَّفْسيَّة التي يَتْرُكُها هَذَا الأثرُ في نَفْس الشَّاعر ، وَكَيْفَ يُصَوِّرُهَا منْ خلال أثر الوَاقعَة وَأسْبَابهَا في قَالب شعْري .

تُعْتَبرُ حَالَةُ فِرَاقِ الأحبَّة في الشِّعْرِ العَرَبِيِّ منْ أَهَمِّ المُؤَثِّرَات الحَقيقيَّة وَمَصْدَرِ إلْهَام للشُّعُور الصَّادق لَدَى الشُّعَرَاء، إذْ أنَّ أثرَ الصَّدْمَة يَجْعَلُ منْ قَريحَتَهُ تُصَوِّرُ ذَلكَ المَوْقف وَوَقْعه وَرَدة الفعْل تُجَاهَهُ، هَذَا وَيُحَدِّدُ المَقَالُ الفَرْقَ بَيْنَ دَلالَات الألْفَاظ منْ نَاحيَّة القَائل (ذَكَرٌ أو أنْثى)، ومنْ نَاحيَّة المَرْثي ودَرَجَة القَرَابَة (أبٌ ، ابنٌ، أخٌ ، عَمٌ...)

Summary :

This article portrays the states of separation in the Arabic poetry through the psychological effects on the poet's psyche and how he portrays it through the incident and its reason.

The separation between lovers is one of the real effects of reality and source of truly inspiration for poets.

So, the effect of the shock makes his psychological state portrays that attitude and its reaction towards it. The article between the significance of vocabulary I the writer whether feminine of masculine and in the other side the visual the degree relationship (father, nephew, uncle).

الإنسانُ في هذه الدُّنيَا يَعيشُ بَيْنَ أفْراد أسْرته يَفْرَحُ لفَرَحهم ويَحْزَنُ لحزنهم، يُعَايش حياتَهم، يُشاركهُم مَحطَّاتهَا بكُلِّ صورها . كَمَا تَهْتَمُّ به الأسْرَة صَغيرًا وتُكُون له المسؤولية شَابًا يَافعًا، يكُونُ لهُ الاحترام والوقارُ كبيرًا .

يقول عمر وبن كلثوم .

إذَا بَلَغَ الفطَامُ لَنَا وَليدٌ*** تَخرُّ لَهُ الجَبَابرَةُ سَاجدنَا ([1])

فَفَرَحُ القَبيلَةُ ببُلُوغ الطِّفْل الصَّغير سنَّ الفطَام دَليلٌ على إعْدَاده أنْ يَكُونَ أحَدُ جُنُودهَا ومُقَاتليها والمُدَافعينَ عَلَى شَرَفهَا . وَلذَا تَكونُ الفَاجعةُ في فرَاقه أعْظَم، فَيَقفُ النَاسُ حَيَارَى تَائهينَ من هول الفاجعة ، وألَمُ وتَحَسُّرٌ علَى فُقْدَانه دُونَ عَوْدة .

يقولُ أبُو ذُؤَيْب وهو يَصفُ حَالَهُ ومُصَابه بَعدَ فراقه لأبنائه

فالعيْنُ بَعْدَهُم كَأنَّ جُفُونَهَا *** سُمكَتْ بشَوْك فَهيَ غُرَر تَدْمَعُ([2])

فهذه الصُّورة تُجَسّدُ ألَمَ الحَسْرَة والفرَاق إذْ فَقَدَ الشَّاعرُ خمْسَة من أبنائه وهوَ مَا زَاد في حَسْرَته وألَمَ الفرَاق عنْدَهُ حيث أصيبَت عَيْنُه برَمَد منْ شدّة البُكاء والحُزْن، وهَذَا دليلٌ عَلَى مكانة الأبْنَاء فَكُلَمَا كانت مكانة الفَقيد كبيرةً كَانت الفَاجعَةُ أعْظَمَ وأبْلغ إذْ به يَفْقدُ الهَيْبَة والشَّجَاعة وخاصةً إذَا كَانُوا قادة الجيُوش وأصْحابَ الرَّأي عنْدَ القَوم .

وَحَادثَةُ الشَاعرُ هَذه تُشْبه ما حَصَلَ لَهُ من شدَّة الفرَاق حتَّى أ صَابَ عَيْنَاهُ الرّمد تشبه بقصة يعقوب عند فراق يوسف الصديق عليْه السّلام يقول تعالى " وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يا أسَفَى عَلى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ " سورة يوسف الآية 84.

" قِيل لمْ يُبصِر بهما ستّ سِنين وإنّه عَمِيَ ،وقيل قدْ تبيّن العيْن وبقّيَ شَيْء منَ الرّؤيَة، وإنّما ابيضّتْ عيْناهُ مِنْ البُكاءِ ولكِنْ سَببْ البُكاءِ الحُزْن " ([3])

فَفَواجعُ الدّهْر لهَا أثَرٌ عَلَى النَّفْس .

وقدْ يخْتَلفُ أثَرُ الفِرَاق بمَكانَة الفَقيدِ وقَرَابَتِهِ منَ الشّاعِر .

ففِي هذا المَقام تتَعدّد الدّلالَةُ وتتَنوّع الألْفاظ بيْن تَحسُّر وتفَجُّع، يقُولُ الجَليلُ في رثاءِ كُليْبٍ

دَعَوْتُك يا كُلَيْبُ فلَـمْ تُجِبْني ***وكيْفَ يُجيبني البَلَد القِفَارُ

أجِبْنِي يا كُلَيْبُ خِـــلاك ذَمّ *** لقَـــــدْ فُجِعَتْ بفَارسِهَا نِزَارُ

أبَتْ عيْنَايَ بعْـــدَكَ أنْ تَكفّا *** كَـأنّ غَضا القَتَادِ لهَا شِفَارُ([4])

ويقولُ فِي بدايَتها دليلٌ علَى قِمّة الفاجِعة .

وصَـــار اللّيلُ مشْتَملا علينَا *** كأنّ اللّيلَ ليْسَ لَه نَهَارُ([5])

فهذه الحَالةُ تَدلّ علَى جَلَل المُصَاب فمن شدّة الحُزْن والدّمُوع المنْسَكِبة جعلَتْ نَهارهُ أسْودًا مُظْلما، بفقْدانه لأخِيه أظْلمتْ الدّنيا منْ حوْله لمَا يَرَى فِيه منَ الجُودِ والحِلْم والكَرَم ونُصْرة الضّعيف ودِفاعًا عنْ حوْزَة القَبيلة وأحَد رجَالَاتِها

وهذا مَا يُطْلق عليْه بأخ الحَزْم وهذه أهَمّ صِفة كَانتْ العَرَب تذْكُرُها في المَرْثيّ ، لأنّها الصّفَة التِي يعْتزّ بها القوْم فيكونُ مقْدامًا جَريئا صَاحب غاراتٍ ظَافرة ومُخاطراتٍ يائسة وصبْر وتجلّد أحَد فرْسانهم المغاويرُ يُدافع عنْهم في المُلمّات ويرْجع لهُمْ الحقّ الذي سُلِب منْهم .

وفي هذا الصَدَد يقول عنْترة بن شداد واصفا لزهير بن جذعة العبْسي

كَانَ عَوْنِي وعدّتِي في الرّزايَا *** كانَ درْعي وذابلي والحُسَاما

يا جُفُوني إذا لمْ تجُودِي بدمْع *** لجعلت الكَرى عليْك حَرَاما ([6])

فهذه الصّفة هي أوْلى الصّفات التي بمَوْت صاحبها تتفقد وما صُورة فتْرة على أنّه كانَ ملازما له في الحرْب درْعا وسِلاحا قاطِعا مُعينًا له في النوائب

وربّ أخ لمْ يدنْه منْك والدٌ *** أبَر منْ ابن أمّ فِي النّوائِبِ

و سبَب ذلك أنّه غالب الذي يُرثيهم الشعراء هم أحدُ المُقاتلين الشّجعان الذين لهُم مُهابة في سَاحات الوَغى

يقُول محمد بنُ كعْب يصِف أخاهُ في الوَغَى وسَاحة الحرْب

أخِي ما أخِي لا فاحِشٌ عنْد بيْته *** ولا أرْوَع عنْد اللّقاء هبُوب

أخِي كَانَ يَكْفِيني وكَانَ يُغْنِيني *** على نَائِبَاتِ الدّهْر حين تَنُوبُ

إذَا مَا تـــــراهُ الرِّجَالُ تَحَفَّظـــوا *** فَلَمْ يَنْطِقُوا العَوْرَاءَ وهو قَرِيبُ

فإنْ غَابَ مِنهمْ غائِبٌ أو تَخَاذَلُوا *** كَفَى ذاك منْهم والجَنَابُ خَصِيبُ

مُعَنًى إذَا عادَى الرِّجَـــالُ عـــــداوة *** بعيدٌ إذا عَادَى الرّجـــالُ قريـــبُ

فتى الحرب إذا جارت كان شهابها *** وفي السلم مفضال اليدين وهوب ([7])

ففي هذه الأبياتِ يُقَدّم صورةٍ أخيه كَيْفَ جَمَع بيْنَ السّخاءِ والبَذْل والعَطاء والحِلْمِ والرِّفْعَة عند الرّخاءِ والقُوّة والفُتُوّة وسُرْعَة الاسْتِجَابة للحَرْب عند المُلِمّات والشّدائِدِ لا يَتَوانَى في الدّفَاع عَنْهُم .

وَمِمَا زادَ في ألَمِ وتَحَسُّر محمد الغنوي " هوَ أنّ أبَا المِغوار كانَ فَارسا في الحَرْبِ وكَريما في السّلْمِ وَهذِهِ الصّفاتُ الحميدةُ جَعلتْهُ يبْكي بصِدقٍ لا يحْتملُ الكذب أبدا، فالفَقِيدُ كان أهلا للتّحسُّر والألَمِ، وَيستَحِقُ في نظر الشّاعر أكْثَرَ من ذلك، وكان هذا التّحسُّرُ والألَمُ سِمَة بارزة عنْد الشُّعَرَاء الجاهليِّين الذِين وقفوا عاجزين أمام المَوْت، بعكْس العربيِّ بعْدَ الإسلام ،حيث عَمَّر اللّهُ قلبَهُ بالإيمان، فأصبح يعي ويشْعُرُ أنّ الموتَ قَدَرٌ محتومٌ، لكنّه ليْس النّهاية، فيَصْبر ويَحْتسِب، وينظر إلى ما أصابَهُ نظرة إسْلاميّة صائِبَة "([8])

فهذَا الموْقِفُ بذاتِه وبهذهِ الصُّورةِ تُجسّدُها الخَنْسَاء أحسنَ تمْثِيل، إذْ كانَتْ قد رَثَتْ صخرا، وهي في الجاهليّة رثاء قد يكونُ أبْلغ ما قيل في هذا البابِ وكأنّ النّساءِ لم يلدْنَ مِثْلَه ولنْ يَلِدْنَ بعدَهُ مثْلَهُ أبدا، إذ جَمَعَتْ فيه كلّ الصِفَات الحميدة التي تربّى عليها المُجْتَمَع العربِّي، من كَرَمٍ وجودٍ وإغاثةٍ الملهُوفِ ونُصْرَةِ المظْلُوم، جَمَعَ بيْنَ القوّةِ والشِدّةِ في الحرْبِ واللّين والرّفْق في السّلْم، رَجُلٌ يُعَدُ أحدَ ركائِز قَوْمِه، بلْ لا مكانةَ لَهمْ من دونِه ولا مهابَةَ للأعداءِ منهم بعدَ مَوْتِه، ففي قصيدتها الرّثائيّة المشهُورةِ جَمَعَتْ فيه كلّ صفاتِ المَدْح التي تغَنّى بهَا العربُ في أشْعَارهِم .

وإنّ صَخراً لكافِينا وســـــيّدُنا *** وإنّ صَخْراً إذا نَشْتوا لَنَحّارُ

وإنّ صَخْراً لمِقْدامٌ إذا رَكِبـــوا *** وإنّ صَـــخْراً إذا جاعوا لَعَقّارُ
أغَرُ أبلَجُ تَأتَمُّ الهـــُداةُ بهِ *** كَأنّـــــهُ عَلَمٌ في رأسِهِ نارُ
جلدٌ جميلُ المحيّا كاملٌ ورعٌ*** وَللحروبِ غداة الرَّوع مسعارُ
حُلوٌ حـــــلِاوَتُه، فَصْلٌ مَقَالتُه *** فاشٍ جُمَالَتـــُه لِلعَظمِ جَبّارُ
حَـــمّالُ ألويَة هَبّـــاطُ أودِيَـــــةٍ *** شَهّادُ أنْدِيَة للجَـــيش جَرّارُ
ومُطعِمُ القَوْمِ شَحماً عندَ مَسغبهم ***وفي الجُدوبِ كريمُ الجَدّ ميسارُ
جَهْمُ المُحَيّا تُضِيءُ اللّيلَ صورَتُهُ *** آباؤهُ من طِوال السَّمْكِ أحرارُ
مُوَرَّثُ المَجْدِ مَيْمُونٌ نَقيبـــــتُهُ*** ضَخْمُ الدّسيعَة في العَزّاءِ مِغوَارُ
فرعٌ لـــــفرع كريمٍ غير مؤتشبٍ *** جلدُ المريرة عندَ الجمع فخّارُ
طَلْقُ اليَدين لفِعْل الخَير ذو فَجَرٍ ***ضَخْمُ الدّسيعَة بالخَيراتِ أمّارُ ([9])

وفي هذهِ القصيدةِ جمعَتْ الخنساءُ صفتَيْن (جمالُ الخُلْق والخَلْق)، فجعلتْه شخصيَّة مثاليَّة، أو نموذجيَّة حيَّة للرَّجُل العربيِّ الشُّجَاع والمُقَاتِل، وكذلك حامِ حِمَى قَوْمِه

الصفات الخِلْقيَّة	الصفات الخُلُقيَّة
أغر، أبلج، جميل المحيا، جهم الحيا	كافينا، سيدنا، نحار، مقدام، عقار، مسعار، جبار، مطعم، كريم، ميسار مغوار، فخار.

فالنّاظرُ لهذه الأبياتِ فقَط من تلْكَ القصيدةِ الرِّثائيَّة يَجدُ فِيها تصويرا لشخصيَّة مُتَكاملَة نموذجيَّة في ذاتِهَا، شخصيَّة لا توجَدُ على أرض البسيطَة إلا نادرا ، شخصيَّة تَجْمعُ بيْنَ حالتَيْن مُختلِفَتيْن، أو مُتغايرتَيْن تماما مَعَ الصَّديق والعدُوّ، فهو (الكريمُ، الجوَادُ، المقاتِلُ الشُّجاعُ)مع قومِهِ، (الصَّلْبُ، القويُّ، المُحاربُ) .

أمّا في العصر الإسْلاميِّ انتقل الرِّثاءُ بصفتِه حالة نفسيّة مُتعلِقة بالقريبِ، (قريبُ النّسب، كالأب، الابْن، الأخ، العم.....).إلى إخوة الدّين الإسلام، وهذا التّحول في تلْك الفنّة له أسبابه ودواعيه يمكن إيصالها

1. أخوّة الدّين أعمّ منْ أخوّة النّسب.
2. البَراءة من كلّ مشرْك وكافِر، واعْتقاد أنّهم نجس.
3. الإيمان القاطِع أنّ الدّين جعَل القياس في المكانة والرّفعة لمن يكون متمسّكًا بالإسلام قوْلا وعمَلا ومنْ خَدَمَه مهْما كان نسَبه فأصْلُه وعِرْقه كان أوْلى بهِ، وقد بيّن شوْقي ضيف عنْدما تحدّث عن القيَم التي ربّى عليْها

الإسلام أتْباعه هذه القيم هي (روحيّة،عقليّة، اجتماعيّة، إنسانيّة)، وهي دعْوة واضِحَة لتحْرير العقْل والرّوح ممّا شابَها من الجُمود والظّلام، فيه تحْرير للعقْل البَشَري للتّفكير والتّدبر، فيه تحرير للمجْتمع من عاداتٍ كانتْ سَائِدة تعَود عليْه بالهَلاك كالقتْل والغَدْر والظّلم وفيه تحْرير للفرْد منْ كوْنه ابْن قَبيلة واحِدة يقْبل بحُكْمها مهْما كان إلى دعْوةٍ إنسانية أخوّة مطْلقة تحْت رايَة الإسلام (10)

فهذا التّحول الفكْري الذي طَرأ علَى عقْل الفرْد العربيّ قلبَتْ له موازين معْرفته ، وهنا تحرّر الفكْر من التّبعيّة والجُمُود .

وعنْدما نعُود إلى الفِراق تَراهم يتحدّثون عن الفاتِحين والمُجَاهدين في الغَزَوات والفُتوحَات لما قدّموه للإسْلام ونشْره

وأبلغ مرثية كانت لحسان بن ثابت رضي اللّه عنه في رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إذ يقول:

لقدْ غيّبُوا حِلْما وعِلْما ورحْمَة*** عَشيّة علَوْه الثّرى لا يوسّد

وراحوا بحزْن ليْس فيهم نبيّهم***وقدْ وهنَت منْهم ظُهُور وأعْضُد

يبْكُون منْ تبْكي السّمَواتُ يوْمَه ***ومنْ قدْ بكَتْه الأرْض فالنّاس أكْمَدُ

وهلْ عدَلت يوْماً رزيةٌ هَالكٍ *** رزيّة يوْم ماتَ فيهِ محمّد

فبكّي رسُول اللّهَ يَا عيْن عبْرةً *** ولا أعْرفنّك الدّهر دمْعك يجْمُدُ

وما فقَد المَاضُون مثل محمّد ***ولا مثْله حتّى القيَامة يُفْقدُ (11)

ففي باقي أبْيات القصيدة ذكْر الشّاعر أسْباب حُرْقة الفِراق ، فجَمَع فيهِ بيْن الصّفات العربيّة الحَميدة (الحِلْم، والرّحْمة والسّلْم واللّين والرّقّة) ؛ وبيّن الدلائل الدينية (انقطاع الوَحْي، مِنْبره، مسْجَده، نُور اللّه الهداية، الرّشاد...) وغيْر ذلك منَ الأمور بموته انْقطعت ولهذا قد يَصِل الرّثاء إلى درَجات كبْرى كالنّدبة والتّأبين ، إذا كان الفقيد له مَكانةً عَظيمةً جدًّا بين أهله وأتْباعه، أو بموْته تتوَقف عنْده كثيرٌ منَ الأمور، فالقصيدة الرّثائيّة هي تَصويرٌ لحُرْقة في نفْس الشّاعِر.

يقول أندروس ميرث موّضحا صوَر الانفعال النّفسي المُجسّد في الشّعر العربيّ "ليْست القصيدة قذْفا عفْويًا من حياة الشّاعِر النّفْسيّة ؛ نعَم هنَاك اضْطرابُ المشاعر، وهيَ مثل هبّات ريح شديدةٍ وتتزايدُ الأمواج بدفْع بعضها بعضا، ويُولد بعْضُها منْ بعْض، وتتجلّى أن تكون أمواجًا وتجْعل نفْسها مَراكب، والشّاعِر وهو ينظر ويُعاود النّظر، يشْعر بقابليّة حَياته هذِه، ويقرّر أن يضْفِي عليْها تَماسُكا، ويُحْدِثُ المعْنى الشّعْري توتّرا سِحريا في الرّغاويّ، وتطْفو في صورة فيْنوسيّة ".(12)

وفي الصّور التي تمّ ذكْرها عن الفِراق تتناول في مجْملها الفراق الماديّ الذي ينْتهي بالموْت وفراق الجسَد دون عوْدة ، كفراق كليْب وصخْر وغيْرهم .

وهذا الوجَع في حقيقته يتْرك أثرًا بليغًا في النّفس حين التّذكّر ، إذْ أنّ الشّاعر قدْ يأس من اللّقاء مرة أخرى بعد الدّفن ، ولذا يكونُ تذكّره في المَواقِف والمناسَبات والأمَاكن والأحْوال التي تتجلّى فيها مَكانَتُه، خاصّة حالةُ الحرْب إذْ تَعْرف القبيلةُ بأكْملها حاجَتها إليْه ، وهنا تجيشُ قريحة الشّاعر وتَهيجُ فتذكُر مَناقبه ومَواقفه وآثارَه.

وهناك نوْع آخَر منَ الفراق ، وهو الفراق المعنويّ ، الذي لا ينْتهي بالموْت ، الذي نَجِد فيه الشّاعر يأمَل في اللّقاء مرّة أخْرَى مع مَحْبوبه أو محْبوبَته، وهذا النوْع يتجلّى عنْد شعراء الغزل كالأعْشى وجميل ومَجنُون ليلى وابنُ زيدون وغيرهم .

يقول الأعْشى وهو يصوّر شوْقه لهُريْرة محبوبته متحدثا على لسَانها مصوّرا حالة الفِراق وحَالة اللّقاء والاشْتياق ، فيقول :

ودِّعْ هُريْرة إنّ الرّكْب مُرتحلُ ***وهلْ تطيقُ وداعا أيّها الرّجلُ

.....****.....

صدّت هُريْرة عنّا ما تكلّمُنا****جهْلا بأمّ خُليْد ،حبْل من تصِلُ؟

أأنْ رأتْ رجُلا أعْشى أضرّ به***ريْب المنُون ودهْر مُفنّد خبلُ؟

قالتْ هُريْرة لمّا جـــئْت زائرهـــا***ويْلي عليك وويْلي منْك يا رجلُ

فالحَادثةُ التي يُصوّرُها الأعْشى تُبيّن حالةَ فِراقِه لمَحْبوبتِهِ وبُعْدُهُ عنْها ، وهذا بمُغادرتها وتنَقُّل أهلِهَا إلى موْضع آخرَ ، قَصْدَ الكَلأ والمَرْعى ،إلاّ أنّ الشّاعر لمْ يُطقْ بُعْدها عنه وانتقالها لموْضع لا يَرَاها فيه.

أمّا الصُّورةُ التي جسّدهَا الشّاعرُ على لسانِهَا تُوَضّح المِيُول النّفسي الدّاخليّ والشُّعورَ المُشترَك والشّوْق الذي يَخْتلِجُ في نَفْسَيْهما وبدَاخِلِهما ، فهي لمْ تُصرّح به أمام أهْلِها ، فصَرّحَت به للشّاعر ، كما يَحْمِل الموْقِفُ منَ حُبٍ وعلاقةٍ بيْنَهما ما يجْعَلُهُما يُصَرّحان بصُعُوبةِ الفِراق والبُعْدِ .

وهناكَ صورَةٌ أخرى يُصوّرُها ابنُ زَيْدون مَعَ وَلّادة.

أضْحَى التّنائي بَديلاً منْ تَدانِينَا***وَنَابَ عَنْ طيبِ لُقْيانَا تَجافِينَا

.....***.....

أنَال زَمانَ الّذي مازالَ يُضْحِكُنا***أنساً بقُربِهِمُ قَد عــادَ يُبكــينا

وَقَدْ نَكُونُ، وَمَا يُخشَــى تَفَرّقُنا،***فاليومَ نحنُ،ومَا يُرْجى تَلاقينَا

نَكادُ، حِينَ تُنَاجِيكُمْ ضَمائرُنا،***يَقضي علَينا الأسَى لَوْلا تأسّينَا

حَالَتْ لِفقدِكُمُ أيّامُنا، فـغَدَتْ***سُوداً، وكانتْ بكُمْ بيـضاً لَيَالِينَا

فهذهِ الانْفِعَالات النّفسيّة وَلّدت ردّة فعْل لدى الشّاعر تَجعلُهُ يُعبّر بما هوَ بداخلِهِ بصورة تُعْطي المقصودَ طابعَ النّقل الحيّ، منْ مُجرّدِ أصوات إلى عالَمٍ خيَالِيٍّ عبر الكلمات .

تقول الخَنْساءُ في رثاء صخْر في القصيدةِ المشْهُورة "يالهفى عليه " عندما صوّرَتْ خِصَالَهُ وفِصَاله ،وطُولَ مدّةِ الحزْن عليْهِ حتّى أصبح الحزْنُ لا يُفَارقُها

يذكّرني طلوعُ الشّمس صخْرا*** واذْكره لكلّ غروب شـــمْس

ولولا كثرة الباكين حـــــوْلي ***على إخوانهم لقتـــلْت نفْسي

فيا لهْفي عليْه ولهْـــف أمّي *** أيصْبح في التّراب وفيه يمْسي(14)

فهذه الحالة النّفسيّة الحزينَةُ التي تعيشها الخَنْساءُ ليست أمرا مُتَعلّقا بفقْدان قريبٍ فحسْب النّاظِر في النّص يَجِد فيه صفات الرّجل المِثاليّ والمُقَاتل المِغْوار، ولعلّ جُلّ النّصوص الرّثائيّة في الشّعر العربيّ القديم تتحدث عن الرّثاء من هذا الجانب، كما يلاَحَظ أيضا في النّصوص الرّثائيّة على اختلاف العصر الذي قيلت فيه، إلا أنّها تتصف بصفة "البُكاء الحزين ""يَخرج في غفلة من الشّاعر نفث قصيدته كاملة في غرض واحد وهو الرّثاء لا غيرَهُ، كما أن عِظَم المُصيبَة يُحَتّم على الشّاعر مُراعاة المَوْقفِ، فلا يخرج عن الموضوع إلاّ إلى ما يُعزّزُ الشّعورَ العامّ بالحزْن والفقد والألمِ "(15)

يقول يوسف ميخائيل أسعد "فالأديب لا يُقدّمُ انفعالاتِهِ ووجداناتِهِ كما هي، ذلك أنّ الوجدانات والانفعالات على طبيعتِهَا تكون كالوحُوش غير المستأنَسَة، ولكنّ تلك الوحوش النّفسيّة إذا ما خضعت للتّرويض والاستئناس فإنّها تَضْحَى مُناسِبَة لا تُقَدّم على هيئَة مادةٍ مقْروءَة أو على هيْئَة مادّة مسموعَة، ومعنى هذا أنّ الوجدانَاتِ والانفعالات التي تَثُور في قلْبِ الأديبِ لا تَصْلُحُ لأنْ تُقَدّم إلى القرّاء أو المُستمعِينَ فعلا كما هي، بل يجب أنْ تَخْضَعَ لكثير من العقل والتّنْظيم"(16)

وهذا الأمر الذي أشار إليه يوسف ميخائيل ينطبقُ كثيرا على الشّعر الانفعاليّ "الرّثاء خاصة "إذْ أنّ النّقلَ في حقّهِ لا بد أن يكون عند المُتَلَقي اصغاءً وفهمٌ للتّفسير الحيّ لما في الكلمات من تعابيرَ وجدانيّةٍ ونقل صحيح للشّعُور والانفعال النّفسيّ للمُتَلَقيّ

نستخلص مما سبق :

1- يَكُونُ الرّثاء بذكر صفاتِ المدح الماديَّةِ والمعنويَّةِ المُتَعديَّةِ للغيْر ، وما انفرد بها المرثيّ عن غيره، أو اشتَرَكَ فيها مع غيره وله التّفْضيلُ المطْلَقُ فيها .

2- أهمُّ الصّفات التي تُذْكَرُ في المرثيّ هي :(القوة ، الشجاعة ، الأخذ بالثأر ، الدفاع عن حرم القبيلة ، .....)

3- يَنْدُرُ تخصيص الرّثاء للبنات في الشّعر الجاهليِّ خاصةً ، وقد يُظم الحديث عنْهُنّ مع ذِكْر الأولاد الذّكور، أو تحت مُسمّى الأبناء .

4- تغيَّرَ الرّثاء في العصر الإسلاميّ وما بعده، إذ لم يُصْبِحْ مطْلَقًا ، فقد حُدّد الحزْنُ فيه ، بُيِّنتْ ضوابطه وفي الحديث قال النبيّ صلى الله عليه وسلم "ليس منّا من لطم الخُدُودَ وشَقَّ الجيوبَ ودعا بدعوى الجاهليّة ".(17)

5- حدَّدَ الإسلام الرّثاء بذِكْر الخصال الحسنة مالم تخالف الشّرع الحكيم ، ولذا نجد الشّعراء الإسلاميّين يمدحون الدُّعاة الزُّعماء الفاتحين ارتباطا بالإسلام لا ارتباطا بالأنساب والقبائل.

يقول سامي العاني "رثى شعراء صدر الإسلام من فقد منهم في السلم والحرب وسلكوا كل هذه الطرق وولكم حظ مراثيهم من طريقة العزاء كان قليلا ،مع إن الإسلام قد وجههم إليها، وحثهم على سلوكها ،لأن الحياة في نظره ظل زائل، وعلى المسلم أن يقبلها كما هي ،دار فناء وانتقال ، الإنسان أضعف من أن يغير سنة الله، فلتقم نظرته على التسليم بقضاء الله وقدره ، وليصبر على الاختبار احتسابا وطلبا للأجر .....

وقد تغيرت بعد الإسلام مناقب التأبين ، وتبدلت الشمائل التي يعددها الشعراء في مراثيهم ، إذ أخضعوها للمقاييس الإسلامية الجديدة ، فتحدثوا بسيرة لم تعرفها الجاهلية ، فيها المجد والتقوى والإيمان ،وفيها الخير والبر والوفاء، وفيها الرحمة والهداية والنقاء".(18)

6- الفراق المقصود في هذه النقاط هو الفراق المادي الذي ينتهي بالموت ، ولذا نجد الشعراء قد قطعوا الأمل من اللقاء مرة أخرى مع الفقيد .

7- تجلى من خلال معجم الألفاظ في شعر المراثي أن المرأة تميل إلى الندبة ولذا نجد في أشعارهم ألفاظ الندبة والنحيب " يالهفي عليه ولهف أمي "

8- الفراق مجمله قد يكون نهائيا وهذا ما يسمى بالفراق المادي، وهناك الفراق المعنوي الذي يكون بين المحبين بين شعراء الغزل، أو ما يكون بين الأهل والأقارب عند مغادرة المنازل وأماكن البدو والرعي الجماعي .

الهوامش والإحالات :

1- عمرو بن كلثوم ، الديوان ، جمعه وحققه إيميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي بيروت ،ط1، 1991، ص 91.
2- أبوزيد القرشي ، جمهرة أشعار العرب ، حققه محمد علي البجاوي ، دار النهضة المصرية ، دط، دت، ص 535.
3- القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، حققه محمود محمد شاكر ، دار المعارف ، مصر، دط،دت، ج1، ص16.
4- المهلهل ، الديوان ، شرح وتقديم طلال حرب ، دار العالمية ،دط، دت، ص32.
5- المصدر نفسه ،ص31.
6- عنترة بن شداد، الديوان ، شرح الخطيب التبريزي ،دار الكتاب العربي ، لبنان ،ط1,1992، ص139.
7- القرشي ، جهرة أشعار العرب ، ص 555- 560
8- محمد علي الشهري ، المراثي في جمهرة أشعار العرب ، دراسة تحليلية فنية موازية ، رسالة ماجستير ، جامعة أم القرى ، السعودية ،1434هـ، ص60
9- الخنساء ، الديوان ، شرحه ابن يسار النحوي ، حققه أنور أبو سويلم ، جامعة مؤتة ، دار عمار الأردن ،ط1، 1988، ص 385-390.
10-ينظر شوقي ضيف ، العصر الإسلامي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط20، 2002، ص11-22.
11-حسان بن ثابت ، الديوان ، شرحه وحققه عبدأ مهنّا ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط2، 1994 ، ص60-64.
12-أندروس ميرث ،مناهج النقد الادبي ، ترجمة ، أحمد الطاهر مكي ، مكتبة و الآداب القاهرة .دط، 1991، ص 146.
13-أحمد الامين الشنقيطي ، المعلقات العشر وأخبار شعرائها ،دار النصر للطباعة والنشر ، دط، دت ،ص145.149
14-ابن زيدون ، الديوان ، شرح يوسف فرحات ،دار الكتاب العربي ، ط2 ،1994،ص299.
15-الخنساء ، الديوان ، اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس، دار المعرفة لبنان ،ط2,2004،ص72.
16-محمد علي الشهري ، المراثي في جمهرة أشعار العرب، ص198.
17-يوسف ميخائيل أسعد سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،دط،1986، ص 181.
18-ابن حجر العسقلاني ، الفتح الباري شرح صحيح البخاري و كتاب الجنائز ، دار الريان للتراث ، دط ،1986 ،ص196.
19-سامي مكي العاني ،،الإسلام والشعر ،عالم المعرفة، دط، 1990 ، ص 130.131.